الفصل الرابع عشر
السيدة عائشة وحادثة الإفك

السيدة عائشة ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق، وهي أم المؤمنين، وزوج الرسول ﷺ، وأحب نسائه إليه، ولدت ﷺ في السنة التاسعة قبل الهجرة، وقد أنزل الله فيها آيات في القرآن لتبرئتها من حادثة الإفك

لمّا كانت السنة السادسة للهجرة خرج النبي (صلى الله و عليه و سلم) غازيا إلى بني المصطلق و قد ارتحلت معه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت الصّديق ، محمولة في الهودج على ظهر البعير. و ما إن فرغ من غزوته ، قفل عائداً إلى المدينة ، حتى إذا كان قريباً منها أناخ رسول الله (صلى الله و عليه و سلم) ببعض المنازل ليرتاح ساعة من الليل .

و قبل أن يسفر الصبح عن وجهه أذن النبي (صلى الله و عليه و سلم) للناس بالرحيل فتهيئوا له . و كانت السيدة عائشة ﷺ حينئذ قد خرجت لقضاء بعض شأنها ، و لمّا عادت إلى رحلها تفقدت عقدها فإذا هو قد انسل من عنقها . فذهبت في طلبه ، غير أنها لما همت بالعودة وجدت القوم قد ارتحلوا و ما دروا أن أم المؤمنين تخلفت عنهم ، و ما شعر الجماعة الذين كانوا يرحلّون هودجها بخفته

و لم يمض وقت طويل حتى وصلت عائشة ﷺ على بعير يقوده صفوان بن المعطل السلمي الذي كان قد أوكل إليه النبي (صلى الله و عليه و سلم) حراسة مؤخرة الجيش فلمّا علم بإبتعاد الجيش و أمن عليه من غدر العدو

، ركب راحلته ليلتحق بالرّكب فمرّ في طريقه بالسيدة عائشة التي لم يعرفها إلاّ بعد أن اقترب منها .

فلمّا رآها ملتفة في جلبابها لم يستطع أن يملك صيحته أو يكتم دهشته فصاح " إنا لله و إنا إليه راجعون " ظعينة رسول الله ؟ ما خلفك يرحمك الله ؟ فما كلمته .

فقدم بعيره إليها ثم تأخر عنها حتى ركبت ، فانطلق يقوده بها دون أن يكلمها كلمة واحدة حتى أبلغها مأمنها في قومها .

فلمّا رأى الناس ذلك تكلم كل منهم على روايته ، و ما يليق به ، و ارتجّ المعسكر و اغتنم المنافقون الفرصة للنّيل من شرف بيت النبوة فقالوا شططا و افتروا على عائشة كذبا .

فقال زعيم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول. حينما رآهما : و الله ما نجت منه و لا نجا منها ! و خاض مع الخائضين في حديث الإفك: مسطح بن أثاثة و حسان بن ثابت و زيد بن رفاعة و حمنة بنت جحش ، وحاشا لله أن تكون ﷺ كما وصف هؤلاء

ولما بلغ الخبر رسول الله (صلى الله و عليه و سلم) و أثر فيه ، لم تكن السيدة عائشة ﷺ وأرضها تعرف شئ عما يدور حولها،و لا تعرف شيئا ممّا في نفس القوم .

و في المدينة مرضت السيدة عائشة مرضا شديدا ألزمها الفراش بضعا و عشرين ليلة ، فأثار وجع قلبها أن ترى من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما لم تعتاده من قبل فهو الذي اعتادت منه اللطف،

فتسأل نفسها ما بال الزوج الحنون لا يرقَ لحالها ،و لا يحفل بشأنها؟ فلما أحسّت منه بعدا و جفوة استأذنته في الانتقال إلى أمها لتمرضها فأذن لها .

و مرت الأيام و تماثلت عائشة ﷺ للشفاء فخرجت من بيت أبيها لبعض حاجتها و معها أم مسطح بنت أبي رهم . و لما كانتا تمشيان في الطريق عثرت أم مسطح في ثوبها فقالت : تعس مسطح ! . فتعجبت ﷺ و أنكرت ما سمعته من رفيقتها ! لماذا تدعو على ولدها أو ليس مسطح رجلا صالحا قد شهد بدرا ؟ فكيف تدعو عليه أمه؟ عند ذلك سألت أم مسطح عائشة : أو ما بلغك يا بنت أبي بكر! قالت عائشة : و ما الخبر؟

فروت لها أم مسطح بما كان من أصحاب الإفك ، فرجعت عائشة إلى أمها مشجوجة الصدر من وجعها لما سمعت من خبر، فقالت لها و دموعها كالسيل : يا أماه يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به و لا تذكرين لي من ذلك شيئا ؟ ... فلم تملك أمها إلاّ أن تقول : أي بنية هوني على نفسك يا عائشة ، في الله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلاّ أكثرن و كثر الناس عليها .

فقالت عائشة : سبحان الله و لقد تحدث الناس بهذا ؟ و ازداد بكاؤها ، فبكت ليلتين و يوما ، ولم يرقأ لها فيهم دمع حتى ظنت أن البكاء فاتق كبدها ، ولم ترى عيناها النوم.

أما رسول الله (صلى الله و عليه و سلم) لمّا لم ينزل عليه الوحي شيء في شأنها استشار أصحابه في فراقها فأشار عليه أسامة بن زيد بإمساكها قائلاً : أهلك يا رسول الله و لا نعلم إلاّ خيرا .

و أمّا علي فقال : يا رسول الله سل الجارية بريرة تصدقك ، فذكرت أنها لا تعلم إلاّ خيرا و أنها ما كانت تعيب عليها شيئا إلاّ انها كانت – أي بريرة – تعجن العجينة و تأمر عائشة بحفظها ... فتنام عنها فتأتي الدواجن فتأكلها، ثم سأل ضرتها زينب بنت جحش عن أمرها فقال يا زينب ما علمت ممّا رأيت ؟

فقالت يا رسول أحمي سمعي و بصري ، و الله ما علمت إلاّ خيرا ، و هي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع ، و لما فرغ النبي (صلى الله و عليه و سلم) من استشارة بعض أفراد آل بيته في أمر يتعلق بهم دون غيرهم أحس بالإطمئنان لمقالتهم فدخل المسجد و صعد المنبر ليرد عن زوجته ألسنة السوء فقال : ((يا أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي و يقولون عليهم غير الحق ؟ و الله ما علمت منهم إلاّ خيرا ، و يقولون ذلك لرجل و الله ما علمت منه إلاّ خيرا ، و ما يدخل بيتا من بيوتي إلاّ و هو معي)) .

ثم ذهب إلى عائشة في منزل أبيها فوجدها تبكي ، فسّلم عليها ثم جلس ، و لم يجلس عندها منذ شهر ، فأراد أن يخرق الصمت المتواصل بينهما ، و رغب في التماس الحقيقة من مصدرها مادام لم يوح إليه بشيء في شأنها فقال لها : ((أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا و كذا فإن كنت بريئة

فسيبرئك الله ، و إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله و توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه)) .

و حينئذ جف دمع عائشة، و قالت لأبويها أن يجيبا عنها رسول الله (صلى الله و عليه و سلم) . فلم يدريا ما يقولان . فقالت : و الله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم و صدقتم به ، فلئن قلت لكم إنّي بريئة – و الله يعلم أني بريئة – لا تصدقوني بذلك و لئن اعترفت لكم بأمر – و الله يعلم أني منه بريئة – لتصدقنني بذلك و الله ما أجد لكم مثلا إلا قول نبي الله يعقوب يوسف إذ قال : " فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون " .وهنا نزلت الرحمة من السماء لهذا القلب المطمئن الموقن بنصرة الله له ، وما زال الجميع فى مجلسهم ، حتى نزل الوحي فسري عن رسول الله (صلى الله و عليه و سلم) و هو يضحك بعد أن مسح قطرات العرق التي تحدرت من جبينه،

ثم قال صل الله عليه وسلم "يا عائشة احمدي الله ، فقد برأك الله " فقالت لها أمها : قومي إلى رسول الله (صلى الله و عليه و سلم)

فقالت : لا و الله لا أقوم إليه و لا أحمد إلا الله الذي برأني .

فقال رسول الله (صلى الله و عليه و سلم) : ((لقد عرفت الحق لأهله)).

ثم خرج النبي (صلى الله و عليه و سلم) إلى الناس، وخطب فيهم ثم ،تلا عليهم قول الحق في تبرأة هذه البتول الطاهرة بنت أبي بكر وزوج رسول الله صل الله عليه وسلم ،

ثم أمر بمسطح بن أثاثة و حسان بن ثابت و حمنة بنت جحش و كانوا ممّن أفصحوا بالفاحشة فضربوا حدّهم ثمانين جلدة .

" إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّه رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) النور"

تلك هي الآيات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم يبرئ فيها السيدة عائشة ﷺ مما اتهمت به، فكل متهم بريء له بهذه السيدة العظيمة أسوة حسنة، إن الذي برأها سيبرّئه، والحياة تضج، وتمتلأ بمشكلات ؛ من نوع أن تلصق بإنسان ما تهمة هو منها بريء، وهذا الذي يحدث له حكمة بالغة، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(١١) النور

و الإفك هو الكذب، بل هو أشد أنواع الكذب، الإفك أن تختلق شيئا لا أصل له، أن تقلب الحق باطلا، والباطل حقا، أن تختلق شيئا لا أصل له، وهو الذي يسميه العلماء استنباطا من هذا الحديث الإفكَ، فالذي يغتاب فإنه يقول ما هو واقع، والعصبة هم الجماعة وهنا هم جماعة الشر وأهل السوء وهم لهم عذاب عظيم، ومع ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (سورة الحجرات: الآية ١٢)